

الحلقة الثالثة
قصص خلفاء الراشدين

الْقِصَصُ الدُّنْيَا

عُمَرُ بْنُ وَثْرَةَ الْأَمْصَا

عبد الحميد جودة السحار

١٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَهُمْ
يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا » .

(قرآن كريم)

انتصر المسلمون على الروم في إفريقية انتصاراً عظيماً ، فأغضب ذلك قسطنطين بن هرقل ، إمبراطور الروم ، فعزم على قتال المسلمين بنفسه ، وجَهَّزَ خمسمائة مركب ، وخرج لقتال المسلمين .

وبلغ عبد الله بن أبي سرح خروج الروم لقتاله ، فأعدَّ المراكب وحمل المسلمين ، وركب محمد بن أبي بكر — وكان يعتقد أن علياً أحق بالخلافة من عثمان ، ومحمد بن حذيفة — وكان يطمع في أن يستعمله عثمان ولم يفعل ؛ ركباً في مركب واحد ، وأخذوا يقولان للناس : إن دم عثمان حلال .

استعمل عبد الله بن أبي سرح وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أباح دمه ، ونزل القرآن بكفره ؛ ولم يستعمل أصحاب رسول الله .

واستمرّاً في عيب عثمان والنيل منه ، حتى أخذ
الناس يتحدثون بما أحدث عثمان (أى بما فعله ولم
يفعله الرسول والخليفةان قبله) . وراح محمد بن أبي
بكر يقول للناس :

— إن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم
لا يرضون عما فعل عثمان . وقد تسلمت رسالة من
المدينة جاء فيها : « إنكم إنما خرجتم لأن تجاهدوا
في سبيل الله عز وجل ، تطلبون دين محمد صلى الله
عليه وسلم ، فإن دين محمد قد أفسد وترك ، فهلموا
فأقيموا دين محمد صلى الله عليه وسلم » .

ولاح للمسلمين أسطول قسطنطين ، وكان
الليل يرخي ستائره ، ولكنها كانت ليلة لا تعرف
الهدوء ؛ كانت نواقيس الروم تدق دقات متلاحقة ،
ويشق أجواز الفضاء ابتهالات المسلمين وتكبيرهم ،
حتى إذا لاح الصباح ، أرسل عبد الله بن أبي سرح

إلى الروم : «إن أحببتهم فالسَّاحِلُ حتَّى يموتَ الأعجلُ
منا ومنكم ، وإن شِئتم فالبحر » .
فقال الروم :

- الماء -

كان الرومُ يعرفون أنه لا قِبَلَ لهم ببقاء المسلمين
على الأرض ، فرأوا أن يُحاربوهم في البحر ؛ فما
كان للعربِ علمٌ بقتالِ السفن ، وظنَّ الرومُ أنها
فرصةٌ طيبة ، ليغسلوا فيها عارَ هزيمتهم في إفريقية .
واقتربت سفن المسلمين من سفن الروم حتَّى
التصقت بها ، فربطَ بعضها إلى بعض ، ودارت
رَحَى القتال ، فقفَزَ الرُّجال إلى الرُّجال ، يضربون
بالسيوفِ وَيَطْعُنُونَ بالخنَاجِر ، فسالت الدِّماءُ ،
وامتزجتْ بمياهِ البحر ، وهَوَتْ جثث القتلى بين
أنياب الأمواج ، وقُتِلَ من الجانبين خلقٌ كثير .

وصبر أبطال المسلمين للقتال صبرا ما صبروه في
مَوطِنِ آخر ، حتَّى جُرح قسطنطين ، ومشى
الضعفُ إليه ، ففرَّ بما بقي من أسطوله ، وقال قائلٌ
في فَرَح : هذا هو الجهاد .

فقال محمد بنُ حُذَيْفَةَ : تركنا خَلْفَنَا الجهادَ حقاً .

- وأى جهاد ؟

- عثمان بن عفَّان .

٢

كان الناسُ في المدينة يتهامون ، ويتناقلون أخبارَ
الأمصار ، ويقولون إنَّ الناسَ يستعدون للثورة على
عثمان ، وبلغ ذلك علياً وطلحة والزبير وسعد بن
أبي وقاص ، فاجتمعوا يتحدثون بما يخوض الناسُ فيه
من حديث تدمرِ الأمصار ، وتأهبهم للانقلاب على

عثمان ، فجمعوا أمرهم على مفاتحة عثمان في ذلك ، فذهبوا إليه ، واجتمعوا به ، وقالوا له :

- يا أمير المؤمنين ، أيا نيك عن الناس الذي يأتينا ؟
- لا والله .

- فإننا قد أتانا أن الناس في الأمصار مُستاءون من عمالهم ، ومتذمرون من سوء تصرفهم ، وأنهم يستعدون للثورة عليك .

فأطرق عثمان ، ثم رفع رأسه ، وقال :
- فأنتم شركائي وشهود المؤمنين ، فأشيروا عليّ .
- نُشير عليك أن تبعث رجالا ممن تشقُّ بهم إلى الأمصار ، حتى يرجعوا إليك بأخبارهم .
وأرسل عثمان الرجال إلى الشام وإلى العراق ، وإلى مصر ليسمعوا من الناس شكاياتهم ، فذهب الرجال ، وعادوا وقالوا :

— ما أنكرنا شيئاً ، ولا أنكره أعلام المسلمين
ولا عوامهم . الأمرُ أمرُ المسلمين .

ولم يُعَذِّ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ ، الذى أرسله عثمانُ إلى
مِصرَ ليرى له خبرَ الناسِ ، فقد اتَّصلَ عَمَّارُ بِمُحَمَّدِ
ابنِ أَبِي بَكْرٍ ، وَمُحَمَّدِ بْنِ حُذَيْفَةَ ، وَالثَّوَارِ ، وَاسْتَمَعَ
إِلَى شَكَايَاتِهِمْ ، حَتَّى اقْتَعَبَ بِهَا ، فَانْضَمَّ إِلَيْهِمْ .

٣

لم ينقطع دابرُ الإشاعات بعد عودَةِ رَسْلِ عُثْمَانَ
مِنَ الْأَمْصَارِ ، بَلِ اسْتَمَرَّتْ تَرُدُّ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فِيرْفَعُهَا
أَهْلُ الشَّوَرَى إِلَى عُثْمَانَ ، فَرَأَى عُثْمَانُ أَنَّ يَكْتُبَ
لِلنَّاسِ ، يَطْلُبُ ثَمَنَ ظُلْمٍ أَن يَأْتِيَ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ ،
وَأَن يَرْفَعَ إِلَيْهِ شَكَايَتَهُ ، فَيَقْتَصُّ لَهُ ثَمَنَ ظُلْمِهِ .
فَكُتِبَ إِلَى النَّاسِ فِي الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمِصْرَ : « أَمَا

بعد ، فَإِنِّي أَخَذُ الْعَمَالَ (الْحُكَّامَ) بِمَوَافَاتِي فِي كُلِّ
مَوْسِمٍ ، فَلَا يُرْفَعُ عَلَى شَيْءٍ ، وَلَا عَلَى أَحَدٍ مِنْ
عَمَّالِي إِلَّا أُعْطِيَتْهُ ، وَلَيْسَ لِي وَلِعَالِي حَقٌّ قَبْلَ الرُّعْيَةِ
مَتْرُوكٌ لَهُمْ ، وَقَدْ رَفَعَ إِلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، أَنْ أَقْوَامًا
يُشْتَمُونَ ، وَآخَرِينَ يُضْرَبُونَ ؛ فَيَأْمَنُ ضَرْبَ سِرًّا ،
وَيُشْتَمَ سِرًّا ، مَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَلْيُؤَافِ
الْمَوْسِمَ ، فَلْيَأْخُذْ بِحَقِّهِ حَيْثُ كَانَ مَنَى أَوْ مِنْ عُمَّالِي ،
أَوْ تَصَدَّقُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ » .

وَلَمْ يَكْتَفِ عُثْمَانُ بِذَلِكَ ، بَلْ بَعَثَ إِلَى عَمَالِ
الْأَمْصَارِ لِيُؤَافُوهُ ، وَلِيَسْمَعَ مِنْهُمْ مَا يُسَخِّطُ النَّاسَ ،
لِيَعْمَلَ عَلَى إِزَالَةِ أَسْبَابِ شَكْوَاهُمْ ، فَلَمَّا جَاءَ إِلَيْهِ
الْعَمَّالُ ، قَالَ لَهُمْ :

- وَنَحْكُمُ ؟ مَا هَذِهِ الشَّكَايَةُ ؟ وَمَا هَذِهِ الْإِذَاعَةُ ؟
إِنِّي وَاللَّهِ لَخَائِفٌ أَنْ تَكُونُوا مُصَدِّقًا عَلَيْكُمْ ،

وما يعصبُ هذا إلا بى (أى لا يتحمل نتيجة أعمالهم إلا عثمان) ، فقال له عُمَّالُه :
 - ألم تبعث (أى ألم ترسل رجالاً إلى الأمصار) ؟
 ألم يرجعوا ولم يُشافِهم أحدٌ بشيء ؟ لا ، والله ما صدق الشاكون .

واستمرَّ عثمانُ يحدثُ عُمَّالَه ، ثم خرج العُمَّالُ وبقى معاوية ، فأرسل عثمان إلى على وطلحة والزُّبير وسعد بن أبى وقاص ، فجاء رسولُ الخليفة إلى على ، وهو جالسٌ فى المسجد بعد صلاةِ العصر يدعوه ، فلمَّا ذهب الرسول ، التفت على إلى عبد الله بن عباس وقال : لم تراه دعانى ؟
 - دعاك ليكلِّمَكَ .

- انطلقْ معى .

ودخلا على عثمان ، فوجدا طلحة والزُّبير وسعداً وأناساً من المهاجرين ، فجلسا ، فسكتَ القوم ، ونظر بعضهم إلى بعض ، فحمد الله عثمان ، ثم قال :

— أما بعد ، فإن ابنَ عَمِّي معاويةَ هذا قد كان غائِباً عنكم ، وعن ما بَلَغْتُمْ مِنِّي ، وعاتبْتُكم عليه وعاتبُومَنِي ، وقد سألني أن يكَلِّمَكم ، وأن يكَلِّمَهُ من أراد . فقال سعدُ بنُ أبي وقاصٍ في استنكار : — وما عَسَى أن يُقالَ لمعاويةَ أو يقول ، إلّا ما قلتَ وقيلَ لك ؟

فقال عليّ : ذلكم ، تكلمَ يا معاوية .

فالتفتَ معاويةَ إليهم وقال :

— أنتم أصحابُ رسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وخيرُته في الأُمَّة ، وولاءُ أمرِ هذه الأُمَّة ، لا يطمعُ في ذلكَ أحدٌ غيرُكم ، اخترتُم صاحبكم من غيرِ غِلْبَةٍ ولا طَمَعٍ ، وقد كبرتُ سنُهُ ، وولّى عمرُهُ ، ولو انتظرتُم به الهرمَ كان قريباً .

وراح معاويةَ يخوِّفُهم نتيجةَ تأليبِ الناسِ علي عثمان ، فالتفتَ إليه عليّ ، وقال له :

- وما لكَ وذلك ؟ وما أدراك ، لا أمَّ لك !
فقال معاويةُ في هدوء :

- دغ أُمِّي مكانها ، ليستَ بشرٌ أمهاتِكُم ، قد
أسلمتَ وبايعتَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
وأجنى فيما أقولُ لك .

فقال عثمان : صدق ابنُ أخي ، إني أخبرُكم
عني وعمَّا وليتَ ، إن صاحبيَّ اللذين كانا قبلي (أبا
بكر وعمر) ظلَمَّا أَنْفُسَهُمَا ، ومن كان منهما
بسييل (أي من كان منهما قريبا) ، وإنَّ رسولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُعطي قُرَابَتَهُ ، وأنا في
رَهْطِ أَهْلِ عِيْلَةٍ وَقَلْبَةِ مَعاش ، فأعطيتُ أقاربي ،
ورأيتُ أنَّ ذلك لي ، فإن رأيتُم ذلك خطأ فرُدُّوه ،
فأمري لأمرِكُم تبع .

— أعطيت مروان بن الحكم (قريب
عثمان) فرده .

وقال الزبير :

— أعطيت عبد الله بن خالد ، فرده فوعدهم عثمان
برد ما أعطى أقاربه ، وخرج علي وطلحة والزبير
وسعد ومعاوية ، وأمسك عثمان ابن عباس ، فقال له :
— ابن عمي ، وما بن خالتي . قد علمت أنك
رايت بعض ما رأى الناس ، فمنعك عقلك وحلمك
من أن تظهر ما أظهروا ، وقد أحبت أن تعلمني
رأيتك فيما بيني وبينك ، فاعتذر .

— والله إن رأيي لك أن تجل سينك ، ويعرف
قدرك وسابقتك ، والله لوددت أنك لم تفعل ما
فعلت ، مما ترك الخليفان قبلك . فقال عثمان معاتبا :
— فما منعك أن تشير علي بهذا قبل أن أفعل ما
فعلت ؟

— وما علمي أنك تفعل ذلك قبل أن تفعل !

٤

كاتب أهل مصرَ أشياعهم من أهل الكوفةِ وأهل
البصرة ، وتواعدوا على اللقاء في المدينة ، فخرج
أهل مصرَ مُدَّعين الحجَّ ، وخرج محمدُ بنُ أبي بكرٍ
معهم ، وبقي محمدُ بنُ حُذيفةَ في مصرَ ، وكان إذا
سُئِلَ عن خرجٍ يقول : خرج القومُ للعمرة .

ولكنه جعل يقول في السرِّ : خرج القومُ إلى
إمامهم ، فإن نَزَعَ (أى تاب واستقام) ، وإلا قتلوه .
وأوفد عبدُ الله بنُ أبي سَرْحٍ إلى عثمان رسولاً
يخبره خبرَ القوم ، فأطرق عثمان ، ثم التفت إلى من
عنده ، وقال : هؤلاء قومٌ من أهلِ مصرَ ، يريدون
بزعمهم العمرة . والله ما أراهم يُريدونها ، ولكنَّ

أسرعوا إلى الفِتنَةِ ، وطال عليهم عُمرى ، أما
والله لنن فارقتهم ليتمنّون أنْ عمرى كان طال عليهم
مكان كلِّ يوم بسنة ، مما يروّون من الدماء المسفوكة .
وذاع في المدينة أنْ المصريّين ما جاءوا إلا لقتل
أمير المؤمنين ، ثم دخل كِبَارُ الصّحابة على عثمان ،
وقالوا له :

— إنْ وفدَ مصرَ يطلب عزْلَ عبدِ الله بنِ أبى
سُرح .

وأرسلت عائشةُ أمُّ المؤمنينَ إلى عثمان تقول :
— تقدّمْ إليك أصحابُ محمّدٍ صلّى الله عليه
وسلّم ، وسألك عزْلَ هذا الرجل (عبدِ الله بنِ أبى
سُرح) فأبيتَ ، فهذا قد قتل منهم رجلاً ، فأنصِفهم
من عاملك .

رأى عثمان أنْ يستجيبَ لرغبةِ المصريّين ، فأرسل
وقال لهم : اختاروا رجلاً عليكم مكانه .

فاختارَ النَّاسُ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ ، فكتبَ عثمان
عهدهَ له وولاه .

واستعَدَّ المِصْرِيُّونَ للْعُودَةِ إِلَى مِصْرَ ، وَقَدْ فَرَحُوا
بِتَوَلِيَةِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ عَلَيْهِمْ ، وَحَسِبَ النَّاسُ فِي
الْمَدِينَةِ أَنَّ ثَوْرَةَ الْأَمْصَارِ قَدْ أَطْفَأَتْ ، وَلَكِنْ خَابَ
ذَلِكَ الْأَمَلُ ، فَقَدْ جَاءَتْ الْحَوَادِثُ عَلَى غَيْرِ مَا
يَشْتَهِي النَّاسُ ، فَعَادَ الْمِصْرِيُّونَ وَأَنْصَارُهُمْ لِيَحَاصِرُوا
عُثْمَانَ ، وَيُرِيقُوا دَمَهُ الطَّاهِرَ الزَّكِيَّ .